

إدمان الشعبوية

ديفيد بروكس

صحيفة نيويورك تايمز

25 يناير 2010

The Populist Addiction

By David Brooks

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

- من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (نيويورك تايمز) منذ عام 2003.
- عمل محرراً في مجلة (ويكلي ستاندارد) منذ انطلاقتها.
- كان من كتاب (مقالات الأعمدة) في صحيفة (وول ستريت جورنال).
- عمل محرراً مشاركاً في مجلتي (نيوزويك) و(اتلانتيك مونثلي).
- عمل محللاً في إذاعة (NPR).
- عمل أستاذاً للسياسة العامة في جامعة دوك.
- إجازة في التاريخ. جامعة شيكاغو.



ديفيد بروكس

يرى بعض المحللين أن السياسة تتكون من اجتماع الأحقاد؛ فمن يحاولون تقسيم المجتمع على أساس عرقي يدعون بالعنصريين. ومن يحاولون تقسيمه على أساس الدين يدعون بالطائفيين. ومن يحاولون تقسيمه على أساس الطبقات يدعون إما بالشعبيين وإما بالنخبويين.

في ما يتعلق بالتصنيفين الأخيرين، الشعبوي والنخبوي، نجد أنهما يبدوان مختلفين، لكنهما في الحقيقة ليسا إلا صورة عكسية لبعضهما البعض. فكلاهما يفترض أن البلاد منقسمة على نحو جوهري، وكلاهما يصفان السياسة بأنها صراع طبقي بين المتنور والفاقد، والمخلص والخائن.

هذان التوجهان باقيا معنا ما بقي الدهر، لكننا نجد في هذه الأيام أن التوجه الشعبوي يجد رواجاً بين الناس. فهذه سارة بالين أصبحت مشهورة بتقسيمها للبلاد بين أمريكيين حقيقيين ونخب ثقافية، كما إن للديمقراطيين شعبيتهم، حيث أدت هزيمتهم في

إدمان الشعبوية

ماساتشوستس إلى دفع العديد منهم إلى توجه يفهم منه أنهم أدركوا الحاجة إلى محاكاة خطاب مرشح الرئاسة جون ادواردز. فقاموا بتقسيم البلاد إلى مجموعتين منفصلتين برأيهم: الأمريكيين الحقيقيين الذين يعيشون في مراكز المدن، والماكرين المنفعيين في أسواق المال.

من السهل أن نكتشف السبب الذي يدفع السياسيين إلى تبني التوجه الشعبوي. فأولاً، يجعل هذا التوجه كافة الأمور تبدو من البساطة الشديدة بمكان؛ فرغم أن الأزمة المالية جاءت نتيجة لشبكة معقدة من العوامل من بينها اختلال التوازن العالمي الذي تسببت به النهضة الصينية، فإن الرواية الشعبوية تكتفي بتوجيه اللوم إلى المصارف الاستثمارية.

ثانياً، التوجه الشعبوي لا يحمل الناخب مسؤولية المشاكل التي يقع فيها. فخلال الأعوام القليلة الماضية عمل الكثير من المصارف الاستثمارية على نحو أحمق. لكن ذلك كان أيضاً دأب المواطن الأمريكي الذي راكّم على نفسه مستويات غير مسبوقة من الدين الشخصي؛ وبحسب التوجه الشعبوي يمكنك أن تجرّم الأول وتبرّئ الثاني.

ثالثاً، التوجه الشعبوي يحظى بشعبية في صفوف الطبقات المسيطرة. فمنذ أن بدأت بالعمل في تغطية الشؤون السياسية، ما فتئت الطبقة المسيطرة في الحزب الديمقراطي يراودها حلم وحيد: أن الناخب سيصل إلى مرحلة من الغضب على أصحاب الشهادات العليا في الأعمال تدفعه إلى انتخاب أصحاب شهادات الدكتوراه في التخصصات الأخرى؛ كما إن الطبقة المسيطرة في الحزب الجمهوري مسكونة بحلم وحيد: أن الناخب سيتوجه إلى انتخاب أصحاب الشهادات العليا في الأعمال بعد أن امتلأ غضباً على أصحاب شهادات الدكتوراه في التخصصات الأخرى. أي أن أعضاء الطبقات المسيطرة يميلون إلى التوجه الشعبوي لاعتقاده بأنه سيساعد جماعتهم في النخبة على اكتساب السلطة.

إدمان الشعبوية

إذن، من السهل أن نفهم أسباب استدراج الشعبوية للسياسيين. ولكن الهزيمة كانت دائما مصير التوجهات الشعبوية منذ أيام ويليام جينينغز برايان¹؛ وذلك لأن الناخبين ليسوا مجموعة من الحمقى كما يتخيل الشعبويون. وإنما هم قادرون على الجمع بين مفهوميين في آن واحد: أن القوي والغني يقومان فعلا بالغش في اللعب بحسب مصلحتهما. وأن مجرد استبعادهما من اللعب لن يحل مشاكل البلاد. لكن السياسيين الشعبويين لا يفهمون الجزء الثاني من المعادلة السابقة، فهم لا يبدون مدركين للحقيقة القائلة بأن السياسة المبنية على معاقبة النخب لن ينتج عنها قوة عاملة أفضل تعليما، أو أوسع استثمارا، أو أكثر إبداعا أو تفوقا في أي من العوامل اللازمة لتحقيق التقدم أو النمو.

في الواقع، لقد بنيت أمريكا على أساس مضاد للشعبوية على أيدي أناس من أمثال الكسندر هاميلتون وابراهام لينكولن ممن عارضوا فكرة انقسام الاقتصاد الوطني جوهريا على أساس حدود الطبقات، ورفضوا أسلوب (الغالب والمغلوب) الذي يشكل أساس التوجه الشعبوي من خلال الاعتقاد بأن الاقتصاد ما هو إلا صراع على غنائم محدودة؛ وإنما اعتقدوا خلاف ذلك بالاقتصاد الوطني الموحد: نظام يتداخل فيه العمل والتجارة والاستثمار.

لقد دعم هاميلتون أسواق المال كما دعم لينكولن المصارف، لكن ذلك لم يكن بدافع حبهما للتجار والمصرفيين، وإنما لعلمهما بأن الاقتصاد الرأسمالي الحي من شأنه أن يوفر أقصى ما يمكن من الفرص لمن خرج من بيئة فقيرة مثلهما؛ فكانا مصممين على تحمل تجاوزات التجار لإدراكهما بأنه ما من مؤسسة أخرى بإمكانها أن تنقل الفرص إلى جماعات وأناس جدد كما تفعل أسواق المال الحيوية.

لم يكن دور الدولة، في منظور هاميلتون ولينكولن، متمثلا في مساندة جانب دون آخر أو شن حرب طبقية، وإنما في بث الحيوية والحس الصناعي في الأنفس على امتداد الطبقات

1) ويليام جينينغز برايان (William Jennings Bryan): سياسي أمريكي (1860-1925)، كان المرشح الرئاسي للحزب الديمقراطي 3 مرات لكنه لم ينجح في الوصول إلى البيت الأبيض؛ تولى وزارة الخارجية في عهد الرئيس وودرو ويلسون (1913-1915). (المترجم)

إدمان الشعبوية

المختلفة. وتعزيز التنافس وضمان عدالته من أجل التأكد من عجز أي مجموعة. علت أو سفلت. عن إقامة حواجز قد تحرم الأمريكيين من فضاء حر وفرص متكافئة. لقد استندت فلسفة هذين الرجلين على الاحتفال بالتنمية والانتقالية والعمل أينما كان ممكنا توليدها.

أما الشعبويون فيعملون بأسلوب (ما لنا ضد ما لهم). وإذا استمروا في هجومهم العشوائي على الاستثمار ورأس المال. فلن ينتج عن ذلك إلا شعور شامل بالالتباس. وهو الذي يتحمل اليوم الجزء الأكبر من مسؤولية عرقلة عجلة الاستثمار والنمو وخلق الوظائف. وسينتهي الأمر بالشعبويين إلى نزع الثقة عن سياسات جيدة (من أمثال الإصلاحات المعقولة التي أجراها اوباما في قطاع المصارف) وذلك لأنهم سيقنعون البلاد بأن الحكومة واقعة في قبضة متهورين من أمثال هيوي لونغ¹.

لقد استعاض الشعبويون عن التفاؤل النشط. وهو حصان رابح دوما. بالخلافات والصراعات التي لا تؤدي إلا إلى الخسران المبين.

1) هيوي لونغ (Huey Long): سياسي أمريكي (1893-1935): عرف عنه الميل إلى السياسة الشعبوية المتطرفة. فطرح شعار «كل الناس ملوك». وعمل على إعادة توزيع الثروة من خلال ضرائب ذات طبيعة خاصة تفرض على الشركات؛ حاكم ولاية لويزيانا (1928-1932). عضو مجلس الشيوخ (1932-1935). عرف عنه الاستبداد والتسلط. وانتهت حياته بالاغتيال. (المترجم)